
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

أدب المقاومة المغربية في بعض المصادر الأجنبية

•ذ. علال ركوك

إن المقاومة، ذلك الفعل الصادر عن مجموعة الشعوب أو القبائل التي انتهكت حدودها وترابها من طرف الغزاة الدخلاء، قد تتخذ أشكالا مختلفة ومتعددة من حمل السلاح لصد العدو إلى الفعل الدبلوماسي، والمفاوضات في إطار المؤسسات، إلى أشكال أخرى تعبيرية تلقائية كالتعبير عن رفض الوضع الراهن عن طريق الأشعار أو الأغاني أو الرقصات وغيرها.

ولعل الباحث في مجال المقاومة تتجه جهود أبحاثه وتنقيباته نحو الوثائق الدبلوماسية والخطابات الرسمية والخطوط العسكرية وغيرها، لكن إلى جانب هذه الوثائق التي يعتبرها مؤرخو العصور الحديثة وثائق أولية صلبة، يجب اعتمادها لمعالجة أي موضوع تاريخي، هناك وثائق ومستندات أخرى..إن تطور الأبحاث في مجال التاريخ مع مدرسة الحوليات ومدرسة التاريخ الجديد، جعلت علم التاريخ يعتمد وبتعاون مع علوم أخرى مكنته من توسيع نطاق مجالاته المعرفية، لتشمل مواضيع جديدة حيث يتعامل معها كظواهر مختلفة في الزمان والمكان. وفي هذا الإطار يدخل الاهتمام بعناصر مختلفة من الثقافة الشعبية المغربية والأدب الشعبي، والتي تعتبر وثائق يمكن اعتمادها في حقل البحث التاريخي بداية.

لقد أثار موضوع الأدب الشعبي المغربي انتباه المؤرخين الذين درسوا جوانب مختلفة من تاريخ المغرب، وفي هذا الإطار تدخل الدراسات الكولونيالية التي تعتبر رغم حمولتها ونظرتها الاستعمارية أحيانا، منجما وخزانا لجوانب مختلفة من تراثنا الحضاري والثقافي، يمكن استغلالها حاليا في غايات مختلفة بالتعامل معها كنصوص ووثائق أصلية.

وبتناول هذا التراكم الكولونيالي بالفرز والتصفيف، يجد الباحث مجموعات نصوص الأدب الشعبي موجودة وأحيانا وافرة. من جملتها نقف على نصوص الأزجال والأشعار والأغاني التي قيلت زمن الحروب، والتي تصنف ضمن ما يصطلح

• استاذ بكلية الآداب – بني ملال

عليه بأدب المقاومة أو الأدب الحربي. ويمكن الوقوف على هذه الانتاجات وتصنيفها والإحاطة بكنهها فيما سيأتي. وإذا كان الأجانب قد اهتموا بهذا الأدب ودرسوه، فإن الوطنيين من المغاربة لم تفتهم فرصة الاهتمام بأدب المقاومة هذا، بل أولوه عناية خاصة خصوصا في العقود الأخيرة من القرن العشرين، مما فوت علينا فرصة الحصول وجمع كميات هائلة من منتوج هذا الأدب الذي ظل مشتتا في الميدان، ومتناثرا في دائرة الأفراد، رغم ما قد يعتريها من نسيان ولحظات فراغ وخلط في بعض الأحيان. رغم كل هذه العوامل، ورغم بعد الفترة التي شهدت المقاومة في المغرب فقد تمكن هؤلاء الباحثون المغاربة من وضع أيديهم على مجموعة من الانتاجات ساهمت في خلق تراكم أضحى مجال اهتمام الباحثين في الجامعات المغربية منذ زمن قريب.

فمن أهم هذه الأعمال، تلك التي تضمنت نصوصا شعرية اخترنا من بينها العناوين الآتية :

BASSET H. Essai sur la littérature des berbères, Alger, Jules, 1920

BEAUVIEUX R. Chants de femmes arabes, Plon Paris, 1942.

BIARNY.S. Notes d'éthnographie et de linquistique nord africaines, Plon Paris, ed Ernest le roux, 1924

« « « « « « Notes sur les chants populaires du rif, archives berbères, Vol. 1, 1915 PP 22-29

BOUNFOUR.A Le voeu de la langue, littérature et société.

BOUVERT Chansons Marocaines du Sud, in Maroc-Médical 15 Avril 1926 PP(142-144) 15 juin 1926 (PP202-204) 15 novembre 1926, P452.

BROWN.K ET LAKHSASSI.A La déstruction est comme un oued, littérature orale Arabo-bérbère, n°18,1987,PP 43-63.

CHAULENT.P. Les poésies du bled Marocain, Maroc catholique, Mai 1937 PP131-132

CHIMENTI.E Chants de femmes Arabes. (Renniat ennessa), plon/s.d, Paris(s-d)

« « « « « « Eves Marocaines, les éditions internationales, Tanger, 1935.

COLLAC Chansons bérbères de la région d'Azilal, France-Maroc 1920 PP147-149.

DERMENPHEN.E La guerre au Maroc et la littérature populaire du rif. Europe 15 juin 1928, PP153-201.

DROWIN.J. Un cycle oral hagiographique dans le moyen Atlas marocain Pub, de la Sorbonne, imp, nationale, Paris, 1995.

DUQUAIRE H. Anthologie de la littérature marocaine, Paris, Plon, 1943.

«««««««««««« Chants de femmes Arabes, Fontaine, 13 mars 1941, PP 255-261.

El Fassi M.	Chants anciens des femmes de Fès, Paris, Seghan, 1967.
Euloge R.	Chant de la Tassaout, Maroc, ed, 1972.
Justinard L.	Note sur la littérature et la poésie chez les rifains, B.E.P.M; Janvier 1926, PP
LAKHSASSI A. Et BROWN.K	Poésie histoire et société en guerre tribale dans le Souss au XIXème siècle à la croisée des études libéyo-bérbère, mélanges offerts à panlette Geland et lisuel Galland Paris Genthner, 1993.
LAOUST E.	Chants bérbères contre l'occupation française, mémorial Henris Basset, Paris Genthner, I.H.E.M. Vol2, 1928, PP9-20
ROUGET G	Chansons bérbères, France-Maroc; Février 1920, P 57.
SEGHRO	Poème de la résistance bérbère, receuillis par Galimache et J Robichz, les temps modernes, Dec, 1949 PP 973-987.

فبالنظر إلى هذه الدراسات يمكن للباحث أن يسجل مجموعة ملاحظات نجملها في الآتي:

1) إن أغلب هذه الدراسات اهتمت بالمناطق الأمازيغية وهذا الاهتمام يستمد مشروعيته من كون المناطق التي اشتدت فيها المقاومة للاحتلال الفرنسي، كانت مناطق جبلية. والملاحظ أن كل هذه المناطق قد أنتجت نصوصا بل أفرز ذلك الاحتكاك بين السكان المحليين والأجانب مجموعة إنتاجات شعرية أو غنائية نجدها بمنطقة الريف والأطلس المتوسط والكبير والصغير ومنطقة سوس وغيرها. وبالمقابل نجد شحا وندرة في النصوص بخصوص مناطق السهول الأطلسية، إن هذا راجع في اعتقادي الى كون الفنون المنتشرة بهذه المناطق هي العيطة والقصايد، وهذا اللون لم يسترع انتباه هؤلاء الباحثين نظرا لصعوبته أو لأمر ما والنتيجة أنه غابت هذه المناطق في كتابات هؤلاء الباحثين وعلى العكس من ذلك لما جاء الباحثون الوطنيون اهتموا بفنون هذه المناطق وأخرجوا الى الوجود مجموعة نصوص ومتون يمكن استغلالها مثل النصوص الآنفة الذكر ولو أنها ليست بنفس الكمية.

2) نظرا لأن أغلب هذه النصوص كما سبق وذكرنا بأمازيغية كل منطقة، فإن الباحثين الأجانب كانوا يكتبون الأصل في أغلب الحالات بالأمازيغية ويضعون له ترجمة باللغة الفرنسية وبعض الهوامش، لكن العملية هذه، وأقصد بها الترجمة، كانت في غالب الأحيان تفقد النص معناه الحقيقي نظرا لعدم فهم المترجم أبعاد صاحب البيت، خصوصا إذا علمنا أن لغة الشاعر هنا تعتمد أكثر فأكثر الرمزية والإيحاء ولاتعتمد المعنى الحقيقي «الأول» أبدا. وهذا يستوجب عملا آخر للباحثين الذين يجب عليهم التأكد من صحة هذه النصوص ومراجعتها ومقارنتها مع نصوص

أخرى لازالت موجودة في الميدان، قبل اعتمادها في مختلف حقول البحث الإنساني أو الاجتماعي.

3) جاءت هذه الأشعار في أشكال مختلفة من الغناء الأمازيغي مثل:
إزلان الذي يتكون من بيتين ولازمة التي تعد الذاكرة الخالدة بالنسبة للقبيلة، وتبقى تردد ما دامت تشكل الحدث المهيمن على الساحة، وهذا اللون من الشعر يتبارى فيه الشعراء في اختيار قدرتهم على الارتجال (تماويت)، وهي قطعة في تركيبها بين الشعر والنثر تتكون من عدة وحدات.

كما نجد (تايفارت) التي تتسلسل فيها الأبيات وكذلك (تاميدوليت) التي تكون مواضيع أشعارها خاصة بالمناسبات.

ونجد صنفا آخر حاضرا بكثرة ضمن هذه الأشعار، يتعلق الأمر بتامديازت أو تانشات وهي تعني أنشد ويؤديها أمدياز أو امدحان، وهو شاعر أمازيغي متجول بين مداشير الجنوب يرافقه ردادين واحد ينقر على الدف، والآخر يعزف على الكمان، ومن حيث المضامين نلاحظ أن قصيدة تامديازت أثارت أكثر من قضية على رأسها القضية الوطنية والتي إن لم يصرح بمعناها فتم الإيحاء بها عبر الرموز.

جاءت هذه النصوص كذلك ضمن فن أحيدوس والذي هو عبارة عن رقصة تتميز بالحوار المتبادل بين صف النساء وصف الرجال المتقابلين.

كما جاء هذا المتن ضمن فن العيطة [1] هذا الفن البدوي المعروف في بلادنا بمختلف ألوانه من الشاوية وازعير والحوز وجبالة وغيرها.

هذا إضافة إلى ظهور نصوص مختلفة قد لايتمكن الباحث من تصنيفها أحيانا نظرا لصعوبة ذلك، والحصيلة أن هذه النصوص والمتون والأشكال تقوبلت في مختلف أشكال الغناء المغربي وأنماطه، إلا أن الباحثين الأجانب لم يكونوا يعيرون اهتماما بالغا لنوع هذه النصوص وأين تنشر، وانحصر همهم في فهم مضمونها. فإذا كان «للنص» علاقة بالمقاومة كان لابد من تتبع مدى انتشار هذه النصوص واتساع مجالاتها وتأثيراتها على السكان، وبالتالي ردود فعل السكان وفي حالة ما إذا حمي وطيس الرد قام ضابط الشؤون الأهلية والمراقبون المدنيون بمنع حركة الشعراء المتجولين، ومنع مثل هذه الحفلات وبعض المواسم والتجمعات وغيرها وذلك درءا لخطر انتشار هذه المعلومات بين القبائل.

1- أنظر علال ركوك : الغناء المغربي الشعبي أنماط وتجليات، مطبعة وليلي، مراكش، 2000.

4) تعتبر هذه النصوص ذات أهمية بالغة بالنظر إلى ما تحتويه من معلومات تاريخية واجتماعية حول المناطق التي أنتجت فيها أو السياقات الحدثية التي واكبتها. إنها سجل حافل بأحداث مختلفة حسب المجالات.

ونسجل أن منطقة الأطلس المتوسط قد حظيت بمجموعة من الأشعار حيث نجد ذكرا وتفصيلا لمجموعة أحداث بالنسبة لأهم قبائل الأطلس المتوسط مثل قبائل بني مطير وقبائل أيت شخمان وأشقير وأيت أحديدو وغيرها. كما نجد حضور منطقة الريف بمجموعة نصوص وكذلك منطقة سوس ثم الأطلس الكبير.

5) يمكن للباحثين من حقول معرفية مختلفة اعتماد هذه النصوص والمتون والانكباب عليها من زوايا منهجية مختلفة قد تتكامل في بعض الأحيان.

ضمن الحقول المعرفية هذه نجد حقل التاريخ الذي يمكنه استغلال هذه النصوص بصورة ذات أهمية قصوى، واعتمادها كوثائق أو شواهد، خصوصا إذا تعلق الأمر بجانب من جوانب التاريخ المحلي نظرا لأن مصادرنا أو الوثائق المعتمدة حاليا لاتمس هوامش الدولة من جهة وثلث الدولة من جهة أخرى. وقد حاول هؤلاء الذين جمعوا هذه النصوص قراءتها والوصول إلى مواقف السكان من خلال تطلعاتهم ومواقفهم إزاء قضايا مختلفة. لكن الأمريختلف حينما يريد المؤرخ الوطني استغلال هذه النصوص والمتون، إذ يجب بداية التأكيد من صحة نسبتها إلى المنطقة التي أنتجت فيها، والملابسات التاريخية التي تحيط بظرفية الأحداث التي تسير في نسقها، ثم تأتي مرحلة وضع فهارس لهذه النصوص حتى يصبح النص جاهزا يمكن اعتماده ولو بنسب متفاوتة من حيث الدقة والصحة والمصداقية التاريخية. هذه التجارب انطلقت مؤخرا في رحاب الجامعة المغربية، وطبعا لم تستثن النصوص والمتون التي جمعها الباحثون المغاربة.

خلاصة

هذه اللائحة الأولية ليست شاملة لأنطولوجية الأشعار والنصوص المغناة والمتون والتي قام بجمعها الباحثون الأجانب، غير أنه بالرغم مما يعتريها من نقص بخصوص الفترات الزمانية، وكذلك عدم التوازن بين المجالات الجغرافية المواطن الأصلية للنصوص، فيمكن الاستئناس بها والاعتماد عليها وفق مناهج كل باحث، والمدرسة الفكرية التي ينتمي إليها، والغايات المتوخاة من أبحاثه.